إشارة

هنـاك من يكتب يوميّـات تفصيلية؛ هناك مـن يتذكّر تفاصيـلَ تكاد تندثر علـى رفوف الأيام. وهناك من يجمع العملين؛ يتذكّر ويُضفي على التفاصيل نَكهة السّـرد التواصلية؛ يسـتعيد وقتَ حدوث الأشـياء ولقاء الأشخاص، أو فِراقهـم، ابتـكار حياةٍ أخرى لهـم؛ وكأن ما حدثَ، حدثَ تـواً. يطوي الزمنَ كمِنشفة ويودِعُها حقيبةَ السَّفر.

اسـتعاداتي فـي هـذا الكتـاب، نوع من إفـراغ الحقيبـة –حافظـة الهاتف النقّـال– التي حَشَـرْتُ فيهـا أوراقَ «الثمانين» وقد صار نشـرُها أمـراً ملحّاً، وتقليـداً زمنيـاً بين مجموعة تقاليد النصوص السـرديّة الخالصة، التي تتخلّل محطّات السَّفر – العُمْرَ المتسارع كقِطار.

في هذه المحطّة، ألتقي بوجوه ومواقف وصُوَر التصقَت بِشُغاف القلب، ورُقاقة الضمير التاريخيّ المحفوظة لأجلٍ مُستحقّ –وهل غير هذه المحطّة– الثمانين – استراحة لتغيير سِكّة السَّفر؟

إنّها ليسـت من جِنس المقالات الاسـتعاديّة وحسـب؛ إذْ أنّهـا اعترافاتُ زمـنٍ تراجـعَ إلى الوراء مثل ومضـاتٍ من نوافذ الرحلـة الطويلة إلى محطّتنا هذه. ولا يُعوِز هذه الاعترافات اقترابُها من جنس السّيرة، قليلاً أو كثيراً.

كانت هذه الاسـتعادات أيقونات محبوسـة في ذاكرة الهاتف النقّال؛ فلمّا لفحَها هواءُ الجوّ – الواقع التواصليّ بلمسـاته الحارّة، صار لِزاماً نزولُها من مستقرّها المتعالي، ومثولُها بين مجالس التداول السوسيولوجيّ اليومية؛ فإذا اجتمعـتْ كلّها هنـا دفعةً واحدة، غـدا الاعترافُ بها متبادلاً، بيـن متداوليها، وتحـرّرت نهائيـاً مـن خصوصيّـة المؤلِّـف الجامع لهـا على سـبيل التجربة

الشـخصيّة، والعلاقـة الفرديّـة، وزالَ عنها السِّـحرُ الذي جمَّدها فـي رُقاقتها الإلكترونيّة.

تتضمّـن هـذه «الاسـتعادات» سِـيَراً لشـخصيات عراقيّة وعربيّـة، غابت عـن الحيـاة؛ إنّهم –حصـراً– المخصوصون بنشـر هذا الكتـاب، وإليهم – وحدهم– تُنسَب «عائديّة» النصوص.

ما عدا سِـيَر الغائبين أولئك، فاعترافاتُ الهاتف النقّال الأخرى، تنحشِـر على مسـافات متباينة، لتشـمل تدويناتٍ من مفكّرة «الثّمانين»، أفكّر مستقبلاً في توسـيع فضائها الافتراضيّ، وبثّ محتوياته على الأبعاد المترامية للشبكة العالميّة «الإنترنت».

م.خ.

البصرة – مايس 2024

الخلود[1]

(الخلود هو المحاكمة الأبديّة) – كونديرا/ الخلود

مـا الخلـود من دون أن نقـصَّ عنه القصـص ونُقاصِصُـه بموجبها؟ وهل الخلود غير حُكم يصدر من «أبديةٍ» يُساق إليها مشاهير الأدب بدعوى تأليف الكُتـب؟ وهل هو مطلوب لذاته أم أنّ السـعي إليه بدافـع من غير ذاته؟ كيف يبدو العالم عندما تخلو المُدُن من الناس الخالدين، وتتشـابه الوجوه السائرة بلا هدف أو يقين، متشابهة كلّها في التقاطيع؟

1. مدينة الخلود الخالية

تدهمنـي هـذه التسـاؤلات كلما بـدأتُ مشـروعاً أفترض له الخلـودَ بين نصوصـي الأخـرى، السـابقة واللاحقة. ولكن لمـاذا الخلـود، وكأن الكتابة نقيضُ العدم، وليست قرينةَ اليأس والإحباط؟ ألم يكن دستويفسكي وكافكا وهمنغواي –وغيرهم من كبار القانطين– خالدين؟

نعم، كانوا خالدين، بالأحرى نصوصهم، لأنّهم شـكّوا بإمكانية التوافق مع أخلاق عصرهم. قوّة اليأس والكآبة منعتْهم من التلذّذ بنصوصهم. كانوا يكتبون فـي عالـم خالٍ من المعنـى والاحترام؛ كأنّهـم أجبِروا على تأديـة أدوار تمثيلية على مسـرح خالٍ من المتفرّجين؛ أو أنّهم كانوا يتمنَّون انهيار العالم ليسـتبدلوه بوجـود أفضل من وجودهم. والحقيقـة، أغلب الكتاب يغالبون أزمانَهم –حين يقصُّون– رؤيا هذه الكارثة، يحاولون النجاةَ بأنفسهم منها، ويجعلونها خالدة.

1– جريدة (الصباح) –بغداد– العدد 4155 بتاريخ 21/ 1/ 2018.

كثيراً ما بدأت قصصي بشعور ينبثق من حلول كارثةٍ ما تمنع وصولها لقرائها. مثلا: هجرة جماعية من المدُن بسبب انقلابٍ عسكريّ أو غزو أجنبيّ أو لسبب من نوع آخر كالمرض والوباء والجوع. وما زلتُ أغالب شعوراً استولى عليّ منذ قراءة (الساعة الخامسة والعشرون) أولاً، ثم تعزّز بقراءة رواية كورماك مكارثي (الطريق) وقبلها مشاهدة فيلم الممثّل الزنجيّ سيدني بواتييه يتجوّل في مدينة خالية من السكّان، يتردّد نداؤه بين ناطحات السحاب، بحثاً عن كائن حيّ مختبئ في أحد ملاجئها. أهناك شعرتَ بأنّك القصّاص الخالد الوحيد في مدينة الموتى السينمائية هذه؟ أتبلغُ الرؤيا نهايتها، حينما تشعر بأنّك الكاتبَ الوحيد الذي نُبِذ وحيداً على جزيرة في بحر الظّلمات كالسندباد أو ابن طفيل أو روبنسون كروزو؟ أأنت الخالد الوحيد؟

2. خلود كونديرا

قد لا تدلّ على الخلود سِيَرُ التاريخ، قصصُ الملوك والعشّاق والمغامرين، ولا ملاحمُ الشِّعر البطوليّة؛ لكن قد ينبع –ذلك الخلود– من الإشارات الخفيفة واللقاءات العابرة التي تحدث على حافة الواقع المهمَلة، ومنعطفات التاريخ المفاجئة. وفي رواية ميلان كونديرا (الخلود) يحدث مثل الانعطاف النادر، حين تلتفت امرأة فرنسيّة في الستّين أو الخامسة والستّين من عمرها مُلوِّحة بيدها لمدرِّبها الشابّ في حمّام السّباحة، وهي تبتعد عنه خطوات بلباس «المايوه»، فتتولّد من إيماءتها الغامضة هذه حياةٌ متخيَّلة بطلتُها امرأةُ المسبح المسنّة «أجنس» تشاركها فيها عشراتُ الشخصيات المشهورة، النائمة في بطون الكتب، وقد أيقظتْها إيماءةُ المرأة الخالدة: «كان هذا سحر الإيماءة الغارق في جسدٍ ليس به سِحر».

ومن أين يأتي سِحرُ الخلود إنْ لم يأتِ في نهاية العمر، حين تصبح الإشارات والكلمات غير ذات قيمة؟ وكلّ الوجوه الغاربة، العظيمة في حياتها، تغدو أقنعةً متغضِّنة؟ وأن يتحاور الموتى، فيُفضي جوته لهمنغواي بأنّ حلمه هو أن تُعرَض مسرحية «فاوست» على مسرح صغير للعرائس، يُدير هو حركات ممثّليها من خلف ستار؟

حقاً إنّ المعنى الآخر للخلود هو الشّحوب التدريجيّ لكلّ شيء عظيم، والسّخرية من كلّ حادثة خارقة للعقل، ونزع البطولة من شخصيات التاريخ. فكما صنعَ ميلان كونديرا حياةً كاملة حاشدة بالتفاصيل المملّة، من إيماءة امرأةٍ مسنّة، فقد يعني الخلود بنظرهِ إرغامنا على تصديق أنّ السَّرد العظيم هو تفصيل بطيء وساخر لتفاهات شخصيّات شهيرة كالرئيسيْن الفرنسيّيْن ديستان وميتران، إضافة إلى رؤساء أميركا كيندي ونيكسون وكارتر، أمّا الحوارات الثنائيّة التي اختلقَها بين نابليون وجوته مرّة، وهمنغواي وجوته مرّتين، فإنّما لإقناعنا بأنّنا لسنا خالدين أكثر من كتُبنا وأفعالنا. فالحكم على ذنوبنا صدرَ مسبقاً بنفينا من الخلود كما صدرَ على العظماء من قبلنا. ولنا أن نتصوّر –مع كونديرا– بأنّ غواية «باتينا» اللعوب لمشاهير عصرها المتصابين، وإعجاب نساء الخلود بالشاعر رامبو، وغراميات الرسّام روبنس مع النساء القوطيّات، ليست أكثر من كنايات «خارج نطاق الحبّ» تنتهي بالملل والصّدود أو الضياع والانتحار.

3. خلود شخصيّ

أفكّر بخلودي الشّخصيّ الذي أخشى أن يتحوّل التفكير فيه إلى شقاء دائم. قد تصادفك في ليلِك ونهارك ما صادفَني من مواقف ومشاهد أجبرتْني على الوقوف إلى جانب دستويفسكي وكافكا ونجيب محفوظ وغيرهم من أدباء القرن العشرين، للدفاع عن مصيري أمام «المحكمة الأبدية» التي تنعقد في ساحة عامة، منذ سنوات الحكم على سقراط.

أقول لهيئة المحكمة: إنّني الكاتب غير المنظور، الكاتب العموميّ، اختزنُ في خاطري شواهدَ على خلودي الشقيّ، الذي رأيتُه في وجوه أطفال منتصف النهار المشرَّدين، عباءات الشّحاذات المرقَّعة، بائعي الصّحف المتجوّلين، صيّادي السَّمك في النهر/ المستنقع؛ وأخيراً في رأس امرأةٍ منحوت، موضوعٍ على كرسيّ كما تصوَّره الفنّان أحمد السَّعد[1].

في كلّ هذه الشواهد خلود ناقص، مقتطَع من «شجرة الحياة» الرمزيّة،

1– أحمد السَّعد نحّات من مدينة البصرة.

كمـا تصوَّرها كاتب سـومريّ، تُلقي بظلّهـا على كائنـات وادي الرافدين منذ آلاف الأعـوام. الشـواهدُ تتناسـخ كتماثيل الملك جوديـا المقطوعة الرأس، وأنت تراها تبرز ثم تختفي فجأة في موقع بناءٍ بلبِنات الطِّين، أو قرب مدخنةٍ لِكُورة الفخّار، أو في باصٍ لمصلحة نقل الركّاب الأخير، أو في مقهى بجوار دار الإذاعـة في «الصالحيّة»، أو في قاعة مكتبةٍ عامة خالية من القرّاء. وأخيراً قد يظهر واحد من النماذج الخالدة (جوته أو بتهوفن أو سرفانتس) في موقع انفجـارٍ لم يُنظَّف تماماً من حطام الأشـياء وبُقع الدماء، يلوّح بتلويحة خفيفة قبل أن يختفي. وكلّ شـاهد يظهر في هـذه المواقع يومئ بوجهك أنت –أيها القصّـاص الخالد– يطلب الخلودَ بـدوره لذاته، فتضحك من بلاهته وحلمه البائس.

مفكّرة ساراماغو[1]

على الجانب الآخر من مفكّرات الكتابة وملاحظات الفنّ الخالصة، تنتظرنا مفكّرات التجربة والحياة، خلاصات العمر ونحْت وجوه الأيام، مفكّرات ألبرتي ونيرودا وماركيز وباث وغاليانو، وأخيراً ساراماغو. وتبدو الإسبانية – اللاتينية أكثر تفصيلاً لعروق اليد وندوب الظّهر والصّدر، من الأوربية والأمريكية التي تنسج بذلاتِ الموضة لتغطية جسد التجربة ومواراة روحِ الغرب العجوز. وبين تلك العوالم تعاني المفكّرات العربيّة والفرانكفونيّة والآفروآسيويّة غربتَها وضياع سبيلها للخروج من لغتها الأصليّة أو الهجينة. أين نضع مفكّرات ميخائيل نعيمة ومالك بن نبي وعبد الكريم الخطيبي وعبد الرحمن منيف وإدوارد سعيد وإيهاب حسن بين المفكّرات اللاتينيّة والأوربيّة والأمريكيّة؟

ثمّة مزاج جماعيّ مجروح يفرز مفكّرات أمريكا الجنوبيّة وشبه القارّة الإيبيريّة عن غيرها من مفكّرات الحقيقة النقديّة الأوربيّة. فبين مزاج ميلان كونديرا التجريبيّ وجوزيه ساراماغو التنقيبيّ فراسخُ من البحث التفكيكيّ لظاهرات «العمى والنسيان» وفنون «الوصايا المغدورة». الأولى مُداراة لجماليّات كتابةٍ روائيّة، والثانية مُداراة لجروح ما وراء الرواية. وكذلك فإنّ مفكّرتي الشاعرين تشارلز سيميك وتوماس ترانسترومر، المفرطتين في الخيال الشّعريّ، ليستا سوى نزهتين جماليّتين خالصتين. حتى إذا جاء دور مفكّرات العالم الثالث صار تصنيفها في الهامش الضئيل المتبقّي بين مفكّرات الهجرة والنفي والهجنة اللغويّة قدَراً كفائيّاً من حصص التجربة

1- نشرت أولا في جريدة (الصباح) -بغداد- العدد 4214 في 2/ 4/ 2018

الباقيـة. إذ لا بـدَّ لمفكّـرة العصـر النـوويّ مـن دعائـم فكريّة قويّـة ومواقف تحديثيّـة تنقضان ما عداهما من مواقف وأسـاليب؛ ولن نقـدِر على نيل مَدارٍ لنـا في كوكـب مزدحم بالتجارب إلا بالتخلّي عـن أوراق بالية قيَّدها الضجرُ والأرَق بقيدي الشكوى والنجوى الذاتيّة.

لكـنّ الجديـد فـي مفكّـرة سـاراماغو هـو انتقالـه مـن المفكّـرة الورقيّة الـى «المدوَّنـة» الإلكترونيّـة التي اسـتغلَّ فضاءها فـي كتابة تعليقـاتٍ وآراء وتأمّـلات، هـي تفاعـلات جانبيّة مـن رحلته الروائيّـة الطويلـة. وكانت آخر مفكّرة ورقيّة أمسـكَها سـاراماغو أنتجَت رواية (مفكّـرات لانزوروتي) العام 1993. بعدئذ سـيكون انتقاله الى التدويـن الإلكترونيّ خطوة جريئة لمغادرة عصر المفكّرات واليوميّـات الدفتريّة، والالتزام بمقاربات كوكبيّة لا تحايثُ مسـبّباتها الأرضيّة إلا في التعاقب الزمنـيّ اليوميّ. فهي مفكّرة الترحال الحرّ فـي كون افتراضيّ، نسـبيّ، موازٍ لكـونٍ روائيّ اختارَ لإحـدى حلقاته عنوان (العمى) التي سـتجذب جائزة نوبل إليه. بعدئذ سترحل رواياته في مدوّناتها الكونيّة كروايته الأخيرة «رحلة الفيل».

تبـدأ مدوّنة سـاراماغو في 15 أيلـول 2008 وتنتهي فـي 31 آب من العام التالـي 2009، العـام السـابق لوفاته. وأوّل مـادّة افتتحَ بها سـاراماغو مفكّرته كانـت مقـالاً عـن مدينته لشـبونة وجـدَه بيـن أوراقـه القديمـة. إنّهـا الرابط الأساسيّ الوحيد الذي بنى عليه معظم رواياته الأولى. أمّا بقية مواد المفكّرة فتؤكّد عشـوائيّة التدوين، لأنّ ساراماغو أراد حشـر فضائه الإنترنيتيّ بأكثر ما يسـتطيع من حوادث عصره. وعلى عكس نظام التدوين الروائيّ المتصل، لا يلـزم التعاقب الزمنيّ لمدوّنات المفكّرة ترابطاً موحَّـد التأثير. فبناؤها أقرب الـى التجميع الكمّي المتقطّع للأحداث والأفكار. وما طريقة سـاراماغو في انتخاب موادّ مدوّنته، إلا اسـتجابة متأخّرة لرغبة تماثليّة مع محاولات غونتر غـراس وماريو يوسـا وهيرتـا موللر ونجيب محفـوظ، إزاء نزعـات التأليف المضادّ لخطاب الرواية العريق (كنزعة الرواية الرقميّة).

استناداً الى طريقة أدواردو غاليانو في بناء سرد الحقيقة، يمكن أن نخطِّط لروايـةٍ مـن مجموعـة أفكار متناثـرة في مفكّـرة ورقيّـة أو إلكترونيّـة. إلا أنّ مقاطع سـاراماغو المكتفية بحقيقتها العارية مـن بلاغة الخيال –«المُصَعَّدة»

بحوادث الواقع المعاصر– تقترب من مستوى نصّ ذي محور حدَثيّ ونهاية حاسمة، كما لو كانت المدوَّنة مجموعة مخطّطاتٍ لقصص قصيرة (مثلا القطعة المؤرّخة في 6 تشرين الأول 2008 عن الشاعر البرتغالي بيسوّا). ولا ضير من وصف أسلوب كتابة القِطَع القصيرة بما تتصف به قصصُ الصحافة اليوميّة الساخنة. فقد أُتيحت لروائيّ استقصائيّ، مثل ساراماغو، فسحة تجوالٍ خارج أسوار خطابه الروائيّ، الذي بدا له بعد سنوات طويلة ضيّقاً كسجن. استطاع ساراماغو خلال هذه الفسحة/ المدوَّنة أن يصل الى أصول «فطرته السليمة» وينتزع من هذا «الفضاء الضئيل» حصّتَه الصافية من موضوعات التاريخ ونُظُم السياسة والحروب والبيئة والعلمانية والمكتبات وشخصيّات العصر؛ ولا شيء مُستثنى من النقد والمراقبة والتحليل كالقضيّة الفلسطينيّة. وكان ساراماغو من قبل يتحصَّن بدرع «دون كيشوت» الفروسيّ لتحصيلها في رواياته.

يعتقد ساراماغو بأن ما نؤلّفه يمكن فهمه على أنّه «قطعة تائهة من سيرة ذاتية غير مقصودة، مهما كانت لا إراديّة، أو بالضبط لأنّها إراديّة». لكن هذه الملايين من المجلّدات التي سيضيق بها كوكب الأرض يجب أن تُقسَّم إلى قسمين من المكتبات: قسم الروايات التخيليّة، وهذا يجب أن يُرحَّل الى القمر وبقية الكواكب ذات الأغلفة الحيويّة التي تحترم هشاشةَ الورق، وقسم المفكّرات العظيمة الذي يجب أن يبقى على الأرض. لكنّ المشاكل، «مشاكل الطبيعة البشريّة» ستَحول دون تحقيق هذه الفكرة، مثل غيرها من الأفكار الفضلى غير القابلة للتطبيق. وربما كانت مفكّرة الحقيقة تحدّياً أخيراً واجهَه ساراماغو كي يبقى على الأرض.

كان ساراماغو رواقيّاً يسعى للسلام الروحيّ، لكن بعيداً عن اللامبالاة؛ حيويّاً مليئاً بالكلمات، لكن مع شعور بالفناء؛ والحقيقة إنّه كان يشعر بأنّه حيّ: «حيّ كثيراً جداً، كلّما كان عليّ لسبب أو لآخر أن أتحدّث عن الموت».

أعطتنا مفكّرة جوزيه ساراماغو، في حصيلتها الإلكترونيّة، عدة فوائد وحقائق يومية، فوق ما أعطته من طرائق في تقسيم مواد المفكّرات، وأسلوبها القريب من المقال الصحفيّ: الدفعات القصيرة، المشبَّع بوجدان الكاتب المشرف على الرحيل؛ وطراوة الفكرة ولمسها سطح الحياة الساخن.

بتلك الأنواع من المفكّرات، سيشـمل خطابُ الأدب السِّيريّ، إمكانيات الشهادة الموضوعية على حوادث كونيّة حاسمة وكبيرة، إلى جانب الهمسات الصادرة من بئر الذات الشـاعرية، في مزيج مـن الوثيقة والقصيدة والمناجاة الروحيّة.

الوشم البغدادي[1]

(1)

سيّدي عبد الملك نوري: لم أجد طريقة لمخاطبة شبحِكَ القصير، المتطاول على الجدار السَّرديّ المتصدّع، غير طريقة الرسائل القصيرة، الشّعارات المنزوعة عن نَسَقها الأصليّ، الملصقات التي غطّت جدار قصّتنا القديم. أنت مايسترو هذه الطريقة، طريقة «التداعي الحرّ»، بما تنثره من أصوات مشتَّتة، وهذرمات متواصلة، وبما ترسمه من وشوم على الأجساد المتحلِّلة. رحلتَ عن دنيانا عام 1998. لم أرَك ولم أجلس إليك في حياتك، لكن ابتداعك ووشمك وصلا إلى جسدي أسرع من سِنّ أزميل ظلَّ إدغار ألن بو يُشهره في وجهي المنهوب بين المؤثّرات الأدبية. أعترفُ بأنّ شبحك ظلَّ أكثر تطاولاً من أشباح بورخس وباسترناك وسالنجر وكونديرا وروب غرييه، وبقية الأشباح التي تنتظر وراء الباب. إنّي أسمحُ لشبحِك بأن يتحدّث بضميره الارستقراطيّ خلال خطابي إليك. فكأنّي إحدى شخصياتك تتحدّث إلى غيرها بضمير المخاطب الذي يعني نفسَها وحسب. وهذا هو أسلوبك في الاعتراف، أقرُّ بتأثيرك عليّ وكأنّه تأثير كاتبٍ آخر. أعترف بتأثيرك عند نقطة النهاية، بعد أن انحلّت الروابط الأبويّة، وشبّت النصوصُ بقوّتها الذاتية. توقف مونولوج الاعتراف فجأة، ورجع ضميرُ الخطاب إلى مستقرّه في الإسْطَبل البغداديّ.

1- جريدة (السفير) اللبنانية بتاريخ 8/ 6/ 2012.

(2)

الشـرطُ فـي التأثيـر أن يكـون المؤثِّـر لا مرئيـاً. المؤثِّر قد يكون شـبحاً، طوطماً، كوكباً عقلياً في مجرّة التأثير الكبرى – اندماجاً كلّياً، توازناً لا زمنياً. أو يكون وشـماً. حين وقفتُ أمام المرآة مثل (دوريان جراي) رأيتُ وشْـمَك مطبوعاً بأثر مختلف عن الوشـوم على خِلقتي: حدوة حصان، سـوط، أفعى. كان أكثر تأثيراً من الوشـوم التي سـبقتْك أو التي لحقتْك. أصبحتُ منهوشـاً، منهوبـاً، بوشـمِك. أنت اللا مرئـيّ، تركتَ أثـراً بارزاً على أضلاع سـرديّتي، علامةً ارسـتقراطيّة تغادر صورتَها متى شاءت وتختلط بعلامات المنهوشين أمثالي، نزلاء الإسْطَبْل.

ثمَّ أنّ الشّـرط في التأثيـر أن يصعد الخطاب من الأدنـى إلى الأعلى، من الإسْـطَبْل الذي نسـكنه، نحن المنهوشين بوشـمِك، إلى القصر الذي تسكنه أنت وحدك. لكنّك عكستَ هذا الاتجاه حين خاطبتَ شخصيّاتك بلهجاتهم العاميّة، هبطتَ إلى إسْطَبْلِهم فكانت نصوصك خطاباً يعكس ذاتَك التنكّريّة، ويقلب هرمَ التأثير من الأعلى إلى الأسفل. استعملتَ علامتَك الارستقراطيّة في عبور حواجز المنْع والتحريم، مناطق الصّراع والتوتّر، هبطتَ إلى عالمنا وشربتَ من كأسنا. اخترقْتَنا بوشمِك.

كمـا أنّ الشّـرط في التأثيـر، أن يتغيّر المؤثِّرون ويتوالـون تباعاً، أن تتعدّد علامات الوشـم، أن تتمزق الخِلقة المعكوسـة في المـرآة وتتحلّل صورتُها. لكنّي أحاول أن أفرز وشـمَك باعتباره وشـماً أصليّاً لا يتغيّر. تُمزِّقه التجارب بحوافرها وأسـنانها، فيبرز ثانية ويسـطع بغموضه الخفيّ. استقرَّ وشمُك إلى جانب الوشم الهنديّ، الذي طبعَه طاغور بعمق في اللّحم السَّرديّ المتحلّل، كأفعـى لا تهـدأ عـن الرّقـص والتناسـخ. إنّي أحـاول فـرز هذين الوشْـمين باعتبارهمـا مؤثِّريْـن أصليَّيْن متناسـخَيْن، بين المؤثِّرات العابـرة التي يدوس بعضها بعضاً ويزول أثرُها بعد حين. كانت علامتك مَعبراً لخطابات التجريب والتحديث التي أقلقتْ هدوءَ الإسْـطَبل، وافتراقاً عن نصوص فترة التأسـيس العشـرينيّة بعد الاحتـلال البريطانيّ عام 1914، ونصوص فتـرة الصّعود بعد الحـرب العالميـة الثانيـة. عبرْنا التقريرَ التسـجيليّ، والشّـعارَ السياسـيّ، في خطاب النُخب الثوريّة المؤسِّسـة والصاعدة، وخرجْنا من الإسْـطَبْل لنجرِّب

طريقةَ تيّار الوعي. لفظتْنا الثورةُ على النظام الملكيّ، مع نصوص نزار عباس ومحمـد روزنامجـي ويحيى جواد ومحمد كامل عارف، عند سـواحل الليل الموحشـة، وهنـاك التقينـا، وسـط الفوضـى اللاحقـة، بتجريبيّة الفرنسـيّين الجدُد، فسـحبْنا أعنّتَها إلى إسْـطَبْلِنا. اهتدينا بعلامتك، كنتَ دليلَنا على ذلك التحوّل من عمارة الجدار المتصدّع، وخيبة الشّتات الثوريّ، ودخولنا تجربة النصـوص المهاجـرة الجديدة. تداعـى قصْرُك الأبـويّ الكبير، وانطمسـت العلامـات تباعـاً، وانقطـع شـبحُك القصيـر المحبوب عـن زيارة إسْـطَبلنا. حدثـتْ آنذاك موجـةُ الهجرة الأولى، تزامناً مع انقلاب شـباط 1963، وظهر على أجسادنا وشْمٌ آخر.

والشَّـرط في التأثير، أن يكون باعثاً على القلق وعدم الاستقرار. وأعجَبُ لانتقـال قلقِك التجريبيّ وسـكَنِه روحاً شـابّة فـي مقتبل التجربـة والمعاناة. كان «قلـق التأثيـر» عاصفاً، جامحاً، قادماً من إسْـطَبْل العاصمـة إلى أطراف الجمهوريّة البعيدة. ثم أدركتُ أنّ هذا الجموح جزء من غيمةٍ تسري كأفراس سـماويّة وتغطّـي أرجـاء العـراق. احتلّت الغيمـة المـدارسَ ودورَ السـينما والمسـارحَ والمقاهي، ولم يتخلّص مولـودٌ جديد من آثارها. عبّأتْ ثورة 14 تمـوز 1958 ثيابَ الفِتيـة والفَتيات بغيمـات مايكوفسـكي القرمزيّة، ونقلَت أشعارُه إلينا عدوى الجنون البولشفيّ. أخذتُ حصّتي من هذه الغيمة وذهبتُ بها إلى الأرياف، وتركتُها ترعى هناك مع شِـياه تلاميذي الهادئين. هدأ قلقي، ورُحتُ أرعاه في منأى من الزحف الشـعبيّ الجماعيّ، الذي أحسَسْـتَ أنت بقدومه في قصتك (نشـيد الأرض) قبل الثورة. وبعد سنوات من تبدّد الغيمة التموزيّـة، صبَبْتُ فكرةَ قصتك (الرجل الصغير) في وعاء قصتي (نافذة على السـاحة) وكانـت هذه العلامـة التناصيّة الأولـى لتأثير وشْـمِك المدنيّ على خطابي القلق، بعد تأثير الطبيعة الريفيّة على خِلقتي المنهوشة.

(3)

كان موقـع الإسْـطَبْل الحكوميّ في (بـاب المعظم) رمز بغـداد المَلَكيّة. كانـت بغداد مدينة الخيول، عربات (الرَّبل)، سـباقات (الرَّيسـز)، الحوذيّين المفضَّليـن لـدى قَصّاصي بغـداد. كنتَ هاويـاً للخيول، وربمـا أهداك أبوك

عبـد اللطيف نوري، وزير الدفاع في حكومـة بكر صدقي عام 1936، حصاناً لتتدرّب على ركوبه. كنتَ صديقاً لسُـوّاس أبيك في الثكنة العسـكريّة، وبعد الثورة سـتُظهِرك إحدى الصُّور على صهوة جوادٍ خلال عملك الدبلوماسـيّ في اندونيسـيا واليابان، مبعوثاً للزعيم عبد الكريم قاسـم عام 1962. تغيّرت الأحوال، إلا أنّ حوافر الإسْطبلات ظلّت محفورة في مخيّلتك. ختمَ ذاكرتي مشـهدُ ثلاثة خيولٍ ضخمة فـي قصتك (الرجل الصغير) تصهـل و«تُطَرْبِك» وتغيـب في الظّـلام. ضلَّ عباس الصغيـر الطريق إلى بيت أخته «مسـعودة»، حيـن ظهـرت لعينيـه الخيول فجأة فـي أحد الأزقّـة الضيّقة المظلمـة، رهيبة بأجرامهـا الراكضة، الواحد وراء الآخر، فالتصقَ بحائـط أحد بيوت الزُّقاق. نظر حصانٌ بعين واحدة مخيفة، ونفخَ في وجه عباس الصغير بضعَ نفخات، ثم غاب في الظّلام. قلَّدتُ ضياعَ عباس الصغير في كتابة أكثر من قصة قصيرة ضائعة، لكنّي لم أجرؤ على نقل مشهد الخيول الراكضة في الزُّقاق. وأحسبُ نصـفَ قصص مجموعتي الأولى (المملكة السـوداء) المطبوعة عام 1972، قد خرجت من بيوت مهيبة كإسطبْلات بغداد.

كيف وصلَ تأثيرك إلى سُـكنانا في أقصى مُدن الجنوب؟ لا عمارات ولا إسْـطَبْلات، وإنّما غابات كثيفة من النخيل، ومسـاحات شاسعة من الأهوار، وبيـوت طينيّة. كانت شـمس الثورة ما تزال تشـوي ظُهورَ كائناتهـا الفلّاحية بشُـواظها. خـلال الأعـوام 1964–1968، كنّـا مطروديـن إلى أبعـد أطراف الجمهورية المنكوبة، وكان تيّار الوعي قد خالطَ نشأتنا الموشومة بالعلامات التأسيسـيّة. كنتُ آنـذاك معلّم أرياف (وأتذكر كافكا–طبيـب الأرياف) أضعُ علـى رفّ غرفتـي الملحقـة بالمدرسـة الابتدائيـة، طبعةَ مجموعتك (نشـيد الأرض) الأولـى الصـادرة عـام 1954. كان المصبـاح النفطـيّ (الفانـوس) يلقي بنـوره الرعّاش على صفحات المجموعة المبقَّعـة بدمائي التي امتصَّها البعوض، ليلة بعد ليلة، خلال قراءتي.

كانت مُتعتُنا أن نسـتغلّ عطلة نهاية الأسـبوع في ركوب القطار من محطّة (أور) في «الناصريّة»، والنزول في محطّة غربيّ بغداد، حيث تلوح للمسـافر قبّةُ مرقد (زمرّد خاتون) المخروطيّة، ثم نسير على طول الرصيف بين المحطّة والمتحـف، قبل أن ننعطف إلى زُقاق (السَّـراي) للبحث عن طبعات الكتب

القديمة التي سـرّبَتْها للسوق أشباحُ الإسْـطَبل البغداديّ. أيّ متعة، وأيّ تأثير للأغلفة والعنوانات والصُّور والملاحظات الهامشـيّة، تلك التي تتحوّل فوراً إلى سُـكنى وتَجـوال ونظَر! كان ضياع زُوّار الجنـوب بين العباءات وكعوب الأحذية وقَصّات الشَّـعر القصيرة والفسـاتين الطويلة، هو الموضوع الشهير فـي خطـاب قصّاصي بغـداد، آنذاك. كنـتُ واحداً مـن هؤلاء الغربـاء الذين يختلسـون النظر عبر واجهة المقهى البرازيليّ في شـارع الرّشيد إلى مجلس النخبـة البغداديّة الموكَلة بمراقبة الرّصيـف الذي يعجّ بالوجوه الضّالة. كنتُ أجـرّبُ الوقوفَ عند الأماكن الحقيقيّة لقصصـك، وأعكسُ النظرةَ الفاحصة لسـكّان الإسْـطَبل عبر زجـاج المقهى. مـا كان هدفي أن ألمحَـك أو أجلسَ قبالتك، فقد استقرّ عندي أنّك من أشباح الإسْطَبل اللا مرئيّين؛ ذلك كي يزيد تأثيرُك حضوراً في أحلام السُّطوح، مع نخبة المقهى البرازيليّ. كان الخفاء/ التخفّي عنك شرطَ حضورِك في خيالي، خيالِ الإسطبْل والمقهى.

(4)

كان عصيّـاً عليَّ اختـراقُ حلقة روّاد المقهى البرازيلـيّ، وكان الاندماج بحلقـات العاصمـة القصصيّة مـن جيل ما بعـد الروّاد دون طمـوح غيمتي المسافرة. ولكي أرتفعَ فوق إسْطَبْل الأشباح، صعدتُ بغيمتي فوق سطوح الفنـادق المصطفَّة في شـارع الرّشـيد، مصطحبـاً معي شـخصياتك النادرة الوجـود. بعـد تجـوال لا ينقطع في نهار صيـفٍ قائظ، ترفعُنـي غيمةُ العِطر البغداديّة، المشـبَّعة بعرَق الجلود الناعمة، عند المسـاء، فوق سـطح فندقٍ يُشـاعُ النّـومُ فيه علـى أسـرّة مصفوفة بلا تخصيـص. كانت أرض السّـطح ملطوشـة ومرشوشـة، وكان الفندق يسـتقبل النّزلاء الليلَ بطوله، يصعدون متى يشاءون إلى سطحه ويستلقون بثيابهم الداخليّة على أيّ سرير يشاءون، وكنتُ أتوقّع أن يجاور سـريري سـريرَ شـخصيّتك الأثيرة (ستار بن صالح جربزة) فيَروي على مسامعي المرهفَة قصةَ بحثه عن ابنه السَّجين. كنتُ أحلم بالجدران الصُمّ للسـجون والإسْطبْلات والبيوت التي تُؤوي وراءها رجالاً بلا نساء، ونساءً بلا رجال، مثل بائع الصّحف الصغير (الجُرَذي) وصديقته عاملـة المقهـى، وكلتاهما شـخصيّة أشـعرتْنا قصتُـك (العاملـة والجُرذي

والربيع) بامتهانهما وحرمانهما وبؤسهما. ليلٌ متّسع، تتصاعد منه الآهات الممدودة في «مَقام» بغداديّ، يبلغ طورُه وذروتُه أعلى السّطوح. أتساءل عن كثرة النّساء في قصصك، النّساء اللواتي أردْتُ امتصاصَ تأثيرهنَّ لكي ألصِقه بأجساد نسائي الجنوبيّات المغطَّيات بالسّواد. لا أصدّق ما يقال عن مِراسِك الصّعب، وعزلتِك الجنسيّة، فقد أمدّني اسْطَبْلُك بقصص نساءٍ لا عدَّ لهنَّ، ولا شفاءَ لعواطفهنَّ، تركَهُنَّ رجالُهنَّ العابثون لوحدتهنَّ القاتلة. ربما كان صديقك فؤاد التكرليّ أكثر حظّاً منّي حين جمعَ رهطاً من نساءِ نُزُلٍ مشترك للعائلات في (الوجه الأخر) مع امرأة عمياء. كان التكرليّ، صديقُك، صلةَ الوصل بيننا، حين كان يسرِّب تأثيرَك الشّبحيّ الغامض عبر نسائه الفريدات. أردْتُ بهذه الملاحظة أن أنبّه إلى معلومة عن تناصّ قصة التكرليّ (بصقة في وجه الحياة) المكتوبة عام 1948، مع قصتك (جِيَف معطَّرة) المكتوبة في العام ذاته. كان عصركما زمنَ المؤثّرات العظيم، ولا غضاضة في ذلك.

(5)

الوقتُ الآن يقارب الثالثة صباحاً، فترةٌ جديدة من انقطاع التيّار الكهربائيّ عن البيوت، وابتداء هجمةٍ مسعورة للبعوض، نفذَت من شبكة حماية النوافذ. تحتوي مفكّرتي الريفيّة على مقطع مؤرَّخ بليلة من ليالي 1962 في قرية قريبة من مدينة «سوق الشيوخ» بمحافظة الناصرية، ليلة انتهاء الموسم الدراسيّ، واقتراب الرحيل من بيت المدرسة المُلحَق والعودة إلى بيت العائلة في البصرة. سجّلت المفكرةُ تفاصيلَ غزوة بعوضٍ الأهوار على استحكامات ناموسيّتي البيضاء في ليلة الوداع الأخيرة. امتصَّ البعوض ما يكفي لتحويلي إلى مصّاص نصوص، وكانت قصصك هدفَ حملتي المبكرة. اختلطت دماءُ الفلّاحين الفاترة، ودماءُ الإسْطَبْل الراكدة، بدمائي الفوّارة، الباحثة عن مؤثّر مدنيّ يسحبُني إلى مركز التفاعلات الكبرى، في عاصمة الموضات والأغاني والنُّصُب الجدارية والأفلام؛ وإلى نُخَب المقاهي والصُّحف ومعارض الرّسم. احتوت مفكّرتي الريفيّة على أشعار وأوصاف لمواسم الحصاد وتخطيطاتٍ لوجوه التلاميذ، زَوَيْتُها كلّها وتحرّكتُ نحوكَ.

كان تأثيـرك جديـداً، راديكاليّـاً، ينزع إلـى امتصاص تيّار الوعـي من رؤوس المنهوشين، بشهيّة البعوض الذي ما زال يفترسني ويستطعم دمائي.

طلع الفجر، وكلام الليل يمحوه النهار. وما اسـتقويتُ به من اسـتراتيجيّة البعـوض، زحفـتْ عليه اسـتراتيجيّة (العصـا المُبصِـرة) بتعبيـر الناقد حاتم الصكـر. العميـانُ، المتخلّون عن تأثير الوشـم، قد يسـتدلّون علـى طريقهم في أكثر من إحسـاس ودليل. السُّـفن الجانحة إلى الساحل، دليلٌ على اتساع البحر، وطول السَّـفر. البحرُ السّـرديّ أوسع من أن يحصره وشْمٌ، فنارٌ مُطفأ، إسْـطَبْلٌ مهجـور. عفوكَ، سـيدي عبـد الملك، أنـتَ لا تُحبّ هـذا النوع من السّـرد، القفـز هنا وهنـاك، فقد كنتَ تعـرف هدفَك جيداً، رغـم انغمارك في دوّامـة الوعـي. كانت موضوعاتـك، ومثلها شـخصياتك، في متنـاول يدِك، لكنّـك أبيـتَ أن تطـوّع كلَّ شـيء لبنانِـك. تخلّيتَ عـن كلّ سَـعي لا يقرّبك من دستويفسـكي وجويس. وكان هـذان الكاتبان أبعد من متناول سياسـتِكَ الأبويّـة، وختْمِكَ البغداديّ... لا تحبّ أن يذكّرك أحدٌ بهذه المأسـاة، فلنعُدْ إلى بداية خطابنا.

(6)

بين الوشْم البغدادي والوشْم الهنديّ، سنوات من التعثّر والتّيه –وأتحدّث هنا عن نفسي. لعنةُ الرحيل إلى نصوصك ستلاحقني كغيمة بعوضٍ مسعور. انتظـرتُ تحلّـلَ الغيمة لكي أسـقط في حديقـة التخلّي عن (نشـيد الأرض) الثوريّ، فسـقطتُ في مملكة الوشـوم الطقسـية (بالنظر إلى قصتي– الشفيع –من مجموعتي القصصية الأولى– المملكة السوداء). هذا قدَري، وخِلقتي الأولى تتحلّل تحت تأثير وشـمِك الأصليّ. أحاولُ الانفصال عن صورتك، والرحيل عن إسْـطَبْلك، وأصِلُ إلى نهايتي. ونهايتي الآن وشْـمٌ على وشْـم، وعَظْـمٌ علـى عَظْـم، فـي مقبـرة النصـوص المتحلّلـة. أنفاسـي تتقطّـع لهذا الانفصـال والتحوّل. سأسـرد ما تبقّى مـن خطابي، نهايتـي أو نهايتك. نهاية قصص الاسْطَبْلات اللعينة!

ثـم هدأ قلقي، نأى أثرُك، غارّ وشْـمُك. إذ بعـد أن تحلّلت خِلقتي صِرتُ شـفّافاً، لا تلبـث الوشـوم أن تتحوّل إلى غيمـة تناصيّة تُمطِـر ذكراها من كل

جانب، بعيد وقريب، أحلاماً شتّى على سطوح مرفوعة على تاريخ الإسْطَبْل القديم. هذه هي النهاية، ولا أظنّها نهاية من نهاياتك القوية، تسوق غيمتَها/ مَطَرَها إلى قلب المحرومين من أبطالك. قد تنعقد الذكرى على وشْمٍ أسحم لمجموعة نساءٍ في مأتم، لكنّها قد تتحرّك بعيداً عنّي إلى ذكرى غيرها. يبرز وشْمُك كلّما قرأتُ قصة قصيرة تضخّ أثرَها المنفرد بقوّة الأثر البغداديّ؛ لكن سرعان ما ينأى الأثر، لأنّ مناخ القصص الجديدة يتطقَّس (بالمعنى الطبيعيّ والشعائريّ) في أكثر من شكل وطريقة.

لم أتأثّر بطقس أقوى من طقوس اسْطبْلك البغداديّ، لكن لا جدوى من الاحتباس طويلاً، عندما تنتظرنا غيمة مسافرة فوق سماء السّطوح الأولى. هذه هي النهاية. اسمحْ لي بأن أعيد ضميرَ الخطاب إلى مستقرّه، كما تستقرّ روحك بسلام للأبد!